التناص في النقد الغربي الحديث.

1 مرحلة الإرهاصات:

عرف النقد الغربي الحديث بعض الإشارات والقرائن والإرهاصات التي تحيل على أقرب نشوء لفكرة التناص، نبدأها مع دراسة **لفرديناند دي سوسير FERDINAND DE SAUSSURE** سنة 1909، رأى فيها « أن سطح النص مكوكب، تبينه وتحركه نصوص أخرى، حتى ولو كانت مجرد كلمة مفردة » [1]، وهذا يعني أن النص ينتج بفعل النصوص الأخرى بشكل تركيبي أو مفرداتي لتستمر حركيته، وتعتبر جهود **سوسير** اللغوية بمثابة الإرهاصات الأولى التي أشارت إلى ظاهرة التناص.

كتب **غوستاف لانسون GUSTAVE LANSON** في السنة نفسها مايلي: « ... فأكثر الكتاب أصالة هو إلى حد بعيد راسب من الأجيال وبؤرة للتيارات المعاصرة، وثلاثة أرباعه مكوّن من غير ذاته، فلكي نميزه - أي نجده هو نفسه - لا بد أن نفصل عنه كمية كبيرة من العناصر الغريبة» [2]، وهذا القول تعبيرعن قضية التناص، فأقدر الكتاب وأملكهم للغة تدخل في تكوينهم ثلاثة أرباع من رواسب السابقين ومن انعكاس المعاصرين لهم.

عرض **توماس ستيرنيس إيليوت THOMAS STEARNS ELIOT** في سنة 1917 في مقال له عن "التقاليد والعبقرية الفردية" - Tradition - and the individuel talent شيئا عن نظرية التناص، وصرح بأن كل كتابة كتبها هي اقتباس عن الأحياء والأموات، لدرجة أنه لم يعد بمقدوره الفصل بين ما هو له وما هو لغيره[3]، وهذا اعتراف

([1]) محمد بنيس، الشعر العربي الحديث 3(الشعر المعاصر)، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1996، ص183.

([2]) محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، ومنهج البحث في الأدب واللغة، نهضة مصر للطباعة والنشر و التوزيع، مصر،

دط، 2004، ص400.

([3]) ينظر، منير سلطان، التضمين والاقتباس(وصف رسالة الغفران للعالم الآخر)، منشأة المعارف، الإسكندرية، دط، دت، ص48.

صريح بـدور الموروث الإنسانـي وإسهامات المعاصرين له، حيث أن كتاباتـه كانت تمتـزج بكتابات الآخرين لدرجة عدم القدرة على معرفة ما هو له وما هو غريب عنه .

يتفق الباحثون على أن مهاد التناص كان مع الشكلانيين الروس، فقد كانت آراؤهم إرهاصات فعلية مهدت السبيل لظهور مفهوم التناص، ومن الأوائل الذين ساروا على هذا السبيل **فيكتور شلوفسكيVICTOR SHLOVSKI** الذي رأى أن العمل الفني يدرك في علاقته بالأعمال الفنية الأخرى، استنادا إلى الترابطات التي يقيمها مع النصوص، مع العلم أن كل الأعمال الفنية تبدع على هذا النحو[4]، وهذه الفكرة تقترب من مفهوم التناص كثيرا، وعلى هذا يمكن فهم العمل الأدبي بشكل واضح من خلال دخوله في علاقة مع أعمال أدبية أخرى، كما أن كل النصوص تقوم على هذا المبدأ، غير أن الشكلانيين لم يتوسعوا في هذه الظاهرة .

أمـا الـولادة الحقيقيـة لمفهوم التنـاص فقد كـانت مع كتابـات **ميخائيل باختيـن MIKHAIL BAKHTINE** عن **دوستوفسكيDOSTOIVESKY**، حيث اشتغل على هذا المفهوم الذي حدده في نظريتي "الحوارية" و"التعدد الصوتي" 1921، حين أقر أنه « مهما كان موضوع الكلام فإن هذا الموضوع قد قيل من قبل بصورة أو بأخرى»[5]، يعني أن الكتابة هي إعادة إنتاج مستمرة لأنماط مختلفة من الكلام، وقد أشار **باختين** إلى التناص بمصطلح الحوارية، كون الحوار عنده يعني أن « يدخل فعلان لفظيان تعبيران اثنان في نوع خاص من العلاقة الدلالية، ندعوها نحن علاقة حوارية، والعلاقات الحوارية هي علاقات (دلالية) بين جميع التعبيرات التي تقع ضمن دائرة التواصل اللفظي» [6]، ليدل على

([4]) ينظر، تزفيطان طودوروف، الشعرية، ترجمة:شكري المبخوت و رجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، المغرب، ط2، 1990، ص41.

([5]) تزفيطان طودوروف، ميخائيل باختين(المبدأ الحواري)، ترجمة:فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،
ط2، 1996، ص124-125

([6]) المرجع نفسه، ص 122.

تقاطع النصوص والملفوظات في النص الواحد، كما استخدم مفهوم تعددية الأصوات، ورأى أن الرواية تتسم بالحوارية وتعدد الأصوات بين جميع عناصرها البنائية، وكشف في مواقع مختلفة من كتابه "الخطاب الروائي" أن الرواية تسمح بولوج جميع أنواع الأجناس التعبيرية ومن الممكن أن تكون تلك الأجناس قصصا، أو أشعارا، أو غير ذلك[7].

يرى **تيزفيتان تودوروف TZVETAN TODOROV** أن **باختين هو** أبرز منظر للأدب في القرن العشرين، ويصرح بذلك في كتابه "الشعرية" قائلا:« باختين هو أول من صاغ نظرية بأتم معنى الكلمة في تعدد القيم النصية المتداخلة، فهو يجزم بأن عنصرا مما نسميه ردَ فعل على الأسلوب الأدبي السابق يوجد في كل أسلوب جديد، إنه يمثل كذلك سجالا داخليا وأسلبة مضادة مخفية إن صحَ التعبير لأسلوب الآخرين »[8] .

2- <u>ولادة المصطلح</u>:

إن تأثير **باختين**، ومبادئ النظريات الأدبية واللغوية لدى الشكلانيين الروس، وأفكار **سوسير** اللغوية، والدعوة إلى انفتاح النص لدى المدرسة البنيوية التوليدية، قد فتح المجال لولادة مصطلح التناص، واعتبرت **جوليا كريستيفا** أول من ابتدع هذا المصطلح، وقد أشارت إلى استعارتها له من **باختين**، إذ أقرت بفضله في التنظير النقدي له في إطار الشكلانية الروسية كون« مفهوم الحوارية لديه هو الذي قاد (جوليا كريستيفا) البلغارية الأصل التي قرأت باختين بلغته الأم عبر أطروحتها (نص الرواية: مقاربة سيميولوجية لبنية خطابية متحولة)، أن تكتشف مصطلح التناص، إذ اتفق الجميع على أن هذا المصطلح ظهر للمرة الأولى على يديها في عدة أبحاث لها كتبت بين 1966-1967 وقد صدرت في مجلتي "تيل كيل" Tel quel و"نقد" Critique وأعيد نشرها في كتابيها "سيميوتيك" و"نص

([7]) ينظر، ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة: محمد برادة، دار الفكر للدراسات وللنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1987، ص88.

([8]) تيزفطان طودوروف، الشعرية، ص41-42.

الروايــة"» [9]، وهذا المصطلح Intertextualité منحوت من كلمتين Enter وتعني (داخل)، و Textuel وتعني(نصي)، فيصبح المعنى "التداخل النصي" أو التناص الذي عرفته بأنه «التقاطع داخل نص لتعبير (قول) مأخوذ من نصوص أخرى، إنه: النقل... لتعبيرات سابقة أو متزامنة»[10]، وكل نص وفق قائـم على سلسلــة من العلاقات بنصوص أخرى، باعتبــار أن كل نص يتكون كموزاييك مــن الاستشهادات (الاقتباسات)، وكل نص هو امتصاص وتحويل لنص آخر[11].

درسـت **كريســتيفا** التنــاص تحـت عنـوانين "عبـر النصوصـية" Transtextualité و"التصحيفية" Paragrammatisme ، وفي حديثها عن هذه الأخيرة اعترفت بأنها أخذت هذه التسمية أيضـا من اللساني **دي سوسـير**، فقالت: « وقد استطعنا من خلال مصطلح "التصحيف" Parragramme الذي استعمله سوسير بناء خاصية جوهرية لاشتغال اللغة الشعرية عينّاها باسم التصحيفية Paragrammatisme » [12]. وقد استطاعت هذه الباحثة أن تفصل في المفاهيم المتصلة بالتناص كمصطلح دال على ظاهرة "التداخل السوسيولفظي" Intèrsociolinguistique وهي الظاهرة التي يجب الاستناد عليها للدخول إلى عالم النص، واضعة بذلك مستويات لفهم علاقة التناص وسياقاته نحو ثلاثة أنماط هي كالآتي:

أ - <u>النفي الكلي</u>:

ينفـي المبـدع كليـا فـي هـذا المسـتوى النصـوص التـي تنـاص معهـا، ويصـبح الـنص محصلة القراءة القائمة على محاورة النصوص، ولهذا على القارئ أن يكون ذكيا في تعامله مع النص لأنه هو الذي يفك رموزه ويعيدها إلى أصلها. وأوضحت **كريستيفا** هذه الفكرة

---

(9) سلمان كاصد، عالم النص(دراسة بنيوية في الأساليب السردية)، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، دط، دت، ص245.

(10) مجموعة من الباحثين، في أصول الخطاب النقدي الجديد، ص 102.

(11) ينظر، مجموعة من المؤلفين، آفاق التناصية(المفهوم والمنظور)، تعريب و تقديم: محمد خير البقاعي، جداول للنشر والتوزيع و الترجمة ، الكويت، ط1، 2013، ص120.

(12) جوليا كريسطيفا، علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط2، 1997، ص 78.

بمثال من قول **باسكال PASCAL** :« وأنا أكتب خواطري، تنفلت مني أحيانا، إلا أن هذا يذكرني بضعفي الذي أسهو عنه طوال الوقت،... ذلك أنني لا أتوق سوى إلى معرفة عدمي» [13]، في حين يحاوره **لوتريامون COMTE DE LAUTREAMONT**، ويقلب دلالته بطريقة تنفي النص الأصلي، فيقول:« حين أكتب خواطري، فإنها لا تنفلت مني، هذا الفعل يذكرني بقوتي التي أسهو عنها طوال الوقت، فأنا أتعلم بمقدار ما يحييه لي فكري المقيد، ولا أتوق إلا إلى تناقض روحي مع العدم» [14]، وتعني **كريستيفا** بهذا أن القارئ هو الذي يكتشف المصدر الأصلي الذي أخذ منه المبدع، لأن هذا الأخير لا يصرح بذلك .

ب - <u>النفي الموازي</u>:

يقوم هذا المستوى على توظيف النصوص الغائبة، وهو أقرب ما يكون إلى مصطلحي التضمين والاقتباس المعروفين في الفكر البلاغي القديم، حيث يقتبس من النص الغائب معنى جديداً مع الحفاظ على المعنى الأول، وبذلك يظل معنى النص الغائب والنص الحاضر هو نفسه.

ج- <u>النفي الجزئي</u>:

يستمد الكاتب بنية جزئية من النص الأصلي في هذا المستوى، ويتفاعل معها داخل نصه، مع نفي بعض المقاطع منه، ومثال عن ذلك قول **باسكال:**« **(**نحن نضيع حياتنا، فقط لو نتحدث عن ذلك**)**، وهذا القول نجد له مثيلا تقريبا في قول **لوتريامون: (**نحن نضيع حياتنا ببهجة، المهم ألا نتحدث عن ذلك فقط**)**» [15]. ومن هنا يمكننا القول إن المستويات التي وضعتها **كريستيفا** تساعد على قراءة النصوص الغائبة وكيفية استدعاء النص الجديد لها .

اندرج مفهوم التناص عند **كريستيفا** ضمن ما وسمته بالإنتاجية النصية Productivité التي تعني إعادة توزيع اللغة عبر التقاء القارئ بالنص، حيث يصبح هذا

---

(13) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(14) م نفسه، ص نفسها.

(15) جوليا كريسطيفا، علم النص ، ص 79.

الأخير عبارة عن عملية إنتاج وسيرورة عمل لا يكف عن التفاعل، وتظهر الإنتاجية من خلال عمل القارئ الذي يعزى إليه ابتكار المعاني الجديدة [16]. والمراد من هذا المفهوم هو توضيح علاقة البناء بين النص الحاضر والنصوص االغائبة التي يتداخل معها، وما ينتج عنه تقاطع ملفوظاتها بتحويل نصوص عديدة يقوم بها نص مركزي يحتفظ بريادة المعنى.

نشرت **كريستيفا** في سنة 1974 كتابها "اللغة الشعرية" ليكون المصطلح قد أصّل بما فيه الكفاية ليتبناه نقاد آخرون أمثال: **بارت، وريفاتير، وجيرار جينيت** ... إلخ. ولكنها سرعان ما انصرفت في وقت مبكر عن مصطلحها - التناص - الذي فهم في رأيها بشكل خاطئ، وانتقلت إلى مصطلح آخر هو "التحول" أو التنقلية Transposition.

3- <u>مرحلة النضج (تحوله إلى نظرية)</u>:

دخل مفهوم التناص مرحلة النضج مع بداية السبعينيات، ومن النقاد الذي برزت جهودهم في هذا الحقل نجد **رولان بارت** الذي ارتبط اسمه بجماعة تيل كيل، حيث أثرى هذا المصطلح في دراسات عديدة كانت المنطلق لتبلوره في الثقافة الغربية عام1973، لا سيما في كتابه "لذة النص"، معتمدا على إنجازات **كريستيفا** إذ صرّح بذلك قائلا: نحن مدينون لجوليا كريستيفا بالمفاهيم النظرية الأساسية التي يتضمنها تعريفها للنص وهي:الممارسة الدالةPratique Signifiante، والإنتاجيةProductivité، والتمعنيSignifiance، وخلقة النصPhénotexte، وتخلق النص Génotexte والتناص Intertexte [17].

عرّف **بارت** التناص على أنه« تبادل النصوص أشلاء نصوص دارت أو تدور في فلك نص يعتبر مركزا، وفي النهاية تتحدد معه...فكل نص ليس إلا نسيجا جديدا من استشهادات سابقة »[18]. وقد استطاع **بارت** أن يوسع آفاق التناص، حيث جعل القارئ عنصرا فاعلا في الوعي بالمدلول لانفتاحه على مراجع ثقافية لانهائية.

---

(16) ينظر، نهلة فيصل الأحمد، التفاعل النصي(التناصية، النظرية والمنهج)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط1، 2010 ، ص113.

(17) ينظر، مجموعة من المؤلفين، آفاق التناصية(المفهوم والمنظور)، ص 34.

(18)المرجع نفسه، ص 52.

يقع في إطار هذه المرحلة إصدار **ميشال أريفي MICHAEL ARRIVE** لكتابه المعنون بـ: "لغات جاري" Les languages de Jarry 1972:« وقد عرض فيه للتناص الداخلي والتناص الخارجي في أعمال الكاتب الفرنسي **ألفريد جاري** (1873-1907). وهو جهد يستحق التقدير- في رأي ليون سومفيل - لوضعه التناص في مركز اهتمامات السيميائية الأدبية» [19]. ويقرّ **أريفي** بأن النص ما هو إلا لغة إيحاء:« مبني كتقاطع نصوص، كمكان تبادل يخضع لنموذج خاص، إنه نموذج لغة الإيحاء» [20]، وخلص إلى أن دراسة التناص يجب أن تحل محل دراسة النص كون التناص في رأيه يهدف إلى معرفة النص في حد ذاته[21].

أشرف **لوران جينـــي LAURENT JENNY** في سنة 1976 على العدد السابع والعشرين من مجلة الشعرية Poétique الذي خصص لمفهوم التناص، عرف هذا العدد عدة دراسات أهمها: دراسة **لـوران جينـي L.jenny** بعنوان "استراتيجية الشكل" La Strategie De LaForme ودراسة **ليلي بيرون موازي L.P.Moises** بعنوان "التناص النقدي" L'intertextualité critique[22]وقد انتقد **لوران جيني** الناقدة **جوليا كريستيفا** في مفهومها الواسع للتناص عبر دراسته "استراتيجية الشكل" واقترح تعريفا آخر للتناص يقول فيه : « إن التفاعل النصي عمل وتحويل وتشرب (استيعاب وتمثل) لعدة نصوص يقوم به نص مركزي يحتفظ بمركز الصدارة في المعنى »[23]. **فلوران جيني** يرى أن التناص يتجلى في

---

(19) ينظر، عمر عبد الواحد، التعلق النصي(مقامات الحريري نموذجا)، دار الهدى للنشر والتوزيع، دط، دت، المنيا، ط1،
2003، ص56.

(20) مجموعة من المؤلفين، آفاق التناصية(المفهوم والمنظور)، ص 124.

(21) ينظر، عمر عبد الواحد، التعلق النصي(مقامات الحريري نموذجا)، ص56 .

(22) ينظر، عمر عبد الواحد، التعلق النصي(مقامات الحريري نموذجا)، ص 57.

(23) ينظر، مجموعة من المؤلفين، آفاق التناصية(المفهوم والمنظور)، ص94.

ثلاثة مظاهر هي: التحقيق(الإنجاز) والتحويل، والخرق، فبداية الإنجاز في النص تستدعي العودة إلى النصوص السابقة يحولها النص ويغيرها ويطورها حتى يتميز عنها[24].

عرفت السنوات 1978-1983 بكثرة الإصدارات التي اهتمت بمفهوم التناص أيّما اهتمام، تأتي في مقدمتها إسهامات **ميشال ريفاتير MICHAEL RIFFATERRE** التي أعادت ضبط المفهوم وتنقيحه عبر إصداراته التالية: سيميوطيقا الشعر 1978، وأثر التناص 1979، والتعالق النصي 1979، وإنتاجية النص 1983.

عرّف **ريفاتير** التناص بأنه:« بناء نص ليصير كيانا نصيا لا يتحقق إلا بتوظيف نصوص عديدة تتداخل فيما بينها وتتقاطع داخل النص الجديد، مكونة له بذلك إطاره السيميولوجي الذي يختلف عن سائر النصوص التي يتضمنها فيما هو يتركب منه »[25]، بمعنى أن النص يتميز عن باقي النصوص الأخرى بسمات خاصة.

صدر **لتودوروف** في سنة 1980 كتابا بعنوان:"ميخائيل باختين المبدأ الحواري" انتصر فيه لمصطلح التناصية دون الحوارية، يوضح فيه أن الحوارية مصطلح مربك، لذا يستخدم مصطلح أكثر شمولا هو الذي استخدمته **جوليا كريستيفا**، في تقديمها **لباختين** ونقصد به التناص، و يدخّر مصطلح الحوارية لأمثلة خاصة من التناص مثل تبادل الاستجابات بين متكلمين[26].

---

(24) ينظر، سمية حطري، التناص في الفكر النقدي(تداخل النصوص و تفاعلها L'intertetualité)، دار الغرب للنشر و التوزيع ، وهران، دط، دت، ص 37-38.

(25) سليمان كاصد، عالم النص، دراسة بنيوية في الأساليب السردية، ص 242.

(26) ينظر، تودروف، ميخائيل باختين(المبدأ الحواري)، ص 121.